فكاهات

رواية

فالنتين (١)

حدث في مدينة باريز سنة ١٨٦٩ ان صيرفياً اسمهُ المسيو فلوڤيل اتى الى مصرفهِ صباح يومٍ فرأى المستخدمين والكتبة في حيرةٍ وقلق فاسرع يسأل عن السبب فوجد پروسپير امين الصندوق وعلى وجههِ سمات الحزن والاضطراب فسألهُ عن الخبر فقال لهُ ان المبلغ الذي نقدتنيهِ امس وقدرهُ ثلاث مئة وخمسون الف فرنك وديعة المركيز دي كلاميرون وضعتهُ في الصندوق وعند حضوري هذا الصباح رأيتهُ مفقوداً . فتعجب الصيرفيّ من هذا الحادث الغريب وامر حالاً بابلاغ الامر الى رجال الشحنة لتحقيق السرقة فجآءوا وفتشوا في جميع انحآء المصرف ولما لم يعثروا على شيءٍ القوا التهمة على امين الصندوق ولا سيما وان الصندوق لم يكن فيهِ اثر كسرٍ او خدش يدل على ان يداً غريبة مستّهُ . وبينما هم كذلك اذا بالمركيز دي كلاميرون يشقّ صفوف المزدحمين حتى مثل امام المسيو فلوڤيل وطالبهُ بالمبلغ المحوَّل لامرهِ . فاعتذر اليهِ الصرّاف بما حصل وسألهُ ان يمهلهُ ريثما يقف على حقيقةٍ من امرهِ . فاستآء المركيز من كلامه والحّ عليه ان

(١) معربة بقلم السيدة لبيبة هاشم

يدفع المال في الحال والاّ فانهُ يُلمن افلاسهُ ، فاخرج الصيرفيّ عند ذلك من صندوقهِ سندات على الحكومة ودفع لهُ منها المبلغ بتمامهِ فاخذهُ المركيز وخرج من حيث اتى

اما پروسپير امين الصندوق فسيق الى السجن كلصّ والحزن ملءُ فؤادهِ وما فتئ يكرر قولهُ للجنود انهُ بريء فلم يُسمَع لكلامهِ مع ما كان معروفاً من استقامتهِ وحسن سيرتهِ وقدكان لهُ اسمى منزلة في قلب المسيو فلوڤيل الذي احضرهُ الى منزلهِ واسكنهُ مع افراد أُسرتهِ واختارهُ خطيباً لشقيقتهِ ولم يكن حينئذٍ باقياً الى العرس سوى اسبوعٍ واحد

فبقي پروسپير محجوزاً عليهِ مدة اسبوع كامل ثم بعد الفحص والتدقيق أُطلِق سراحهُ لان الحكومة لم تجد وجهاً لاثبات التهمة عليهِ ولكنها ابقتهُ تحت المراقبة وعهدت الى رئيس الشحنة السرّية ان يتحرى حقيقة هذه الحادثة . وفي تلك الاثنآء تقدم المركيز دي كلاميرون يطلب مادلين شقيقة الصرّاف وخطيبة بروسپير عروساً لهُ

***

والآن نأتي على ذكر لمحةٍ من حياة قرينة المسيو فلوڤيل لعلاقتها بالرواية . فقد كانت هذه السيدة ابنة الكنت لاڤربري واسمها ڤالنتين توفي ابوها وهي صغيرة السن بعد ان جردتهُ الحكومة من امواله لانهُ كان من المتحزبين ضدها فاضطر ان يذهب بأُسرتهِ الى قصرٍ لهُ قديم يبعد ثلاثة اميال عن مدينة تراسكون قرب نهر الرون حيث شبت ڤالنتين يتيمة تحت عناية والدتها الكنتة لاڤربري

ولما كان بعض الايام سنة ١٨٤١ دعيت الكنتة وابنتها وكانت حينئذٍ قد بلغت سن السابعة عشرة الى وليمةٍ اعدها احد الاعيان احتفالاً بعيدهِ القضي وكان من جملة المدعوين شخصٌ من أُسرة دي كلاميرون اسمهُ غستون وهو جميل الطلعة حسن البزة فتعرّف بالسيدة فالنتين وادهشهُ جمالها الفتان ولم تكن هي اقل منهُ اعجاباً بحسن طلعتهِ فتجالسا وتحابّا ولم يبتعد احدهما عن الآخر مدة السهرة كلها . وعند ارفضاض المدعوين انتهز غستون فرصة الوداع فخلا بفالنتين هنيهةً على انفراد وصرّح لها بوجيز العبارة بما خالج فؤادهُ من الوجد والهيام وقابلتهُ هي بكشف ستار الحب فاتفقا على ان يلتقيا كل مساء في حديقتها وكان منزل دي كلاميرون على الضفة الثانية من نهر الرون فذهب كلٌّ الى منزلهِ متهلّلاً بصدى نغمات الحب التي كانت لا تزال ترنّ في آذان المتحابَّين . ولكن ضبابة كثيفة كانت تحجب عن اعينهما نور السعادة وتقف في مجرى آمالهما وذلك انهُ كان بين الأُسرتين عداوةٌ سابقة منذ زمن لويس الثالث عشر افضت الى اراقة الدماء فلم يعد امل بعد ذلك في توثيق عرى المودة القديمة التي كانت بينهما غير ان ذلك لم يمنع غستون من زيارة حبيبتهِ كل مساء اجابةً لداعي الغرام ودام الامر كذلك ما يزيد على سنتين وغستون يجتهد في تجديد صلات الصداقة بين الاسرتين كي يتمكن من الاقتران بها ولكنهُ لما وجد انهُ لا يمكنهُ استئصال جرثومة البغضاء بينهما ولا مخاطبة ابيهِ في هذا الشأن والتصريح بحبهِ لفالنتين على رؤوس الاشهاد خطبها من امها سرًّا وفي اثناء ذلك سافرت والدة فالنتين وابنتها الى باريز بدعوة من بعض

اقاربهما هناك فاغتنم غستون هذه الفرصة وتبعهما الى باريز وهناك اقترن بفالنتين لكن ابقى قرانهُ مكتوماً الى ان يتم مسعاهُ بتقريب الأُسرتين. غير ان الناس كانوا بعد ذلك يرونهُ يكثر من التردد عليها وهم يجهلون حقيقة زواجهما فاخذوا يقبحون سيرتهما بكل شفةٍ ولسان

واتفق ذات يوم وجود غستون في احد الاندية فسمع اسم امرأتهِ يتردد على ألسنة بعض الحاضرين بالهزء والسخرية فاستشاط غيظاً وهجم على المتكلم كالاسد الضاري وقبض على عنقهِ وضربهُ بالارض فحطم عظامهُ فتألب القوم وهجموا عليهِ هجمةً واحدة بقصد امساكهِ ولكنهُ افلت منهم بخفة الريح وساعدهُ الحظ بالهرب من المدينة فسافر الى حيث لا يعلم لهُ اثر كي يتخلص من العقاب الذي يتهددهُ

وبعد ثلاثة اشهر من هربهِ سمعت فالنتين ان زوجها قد غرق وهو مسافر من مرسيليا الى الديار الاميركية فهرولت الى قصر كلاميرون لتتحقق الخبر فرأت الناس يخرجون ويدخلون زرافاتٍ يعزّون اباهُ الشيخ ولما تحققت الخبر رجعت الى قصرها وهي تلطم نفسها من شدة الحزن والاسى واخبرت والدتها بما كان من الامر فشق عليها هذا الخبر واقامت شعائر الحزن اسفاً عليهِ

وبعد قليل من وفاة زوجها وضعت غلاماً دعتهُ راعول فكان لها اكبر تعزية بعد فقد بعلها فربتهُ على مهد الرفاهية والدلال ولما بلغ الخامسة من عمرهِ ارسلتهُ الى مدرسة من مدارس لندن كي يتلقى العلوم فيها وفي تلك الاثناء تقدم المسيو فلوفيل لطلب يدها فلم ترفض طلبهُ فاقترن بها وسافرا

الى باريز حيث تعاطى حرفة الصرافة على ما سبق ذكرهُ

* * *

وبعد مضيّ خمس عشرة سنة من اقترانهما ومضيّ ستة اشهر من سرقة البنك اذ كانت فالنتين جالسة في غرفتها دخلت الخادمة واعطتها بطاقةً مكتوباً عليها اسم المسيو دي كلاميرون. فلم تقع عيناها على ذلك الاسم حتى ارتاعت وتصبب العرق من جبينها ولبثت متحيرة لعلمها انهُ مات منذ عشرين سنة ثم امرت الخادمة ان تدخلهُ الى غرفتها الخصوصية ففعلت. ولما وقعت العين على العين تأملتهُ فالنتين فلم تعرفهُ فظنت ان طول الزمان قد غير من ملامحهِ فقالت غستون.. اجابها باسماً لا يا سيدتي انني لست بغستون وانما انا لويس اخوهُ فقد مات اخي منذ امدٍ قصير اذ كان آتياً الى باريز بقصد ان يراكِ وقد اتفق ان شاهد ابنهُ وابنكِ راعول في احد الاندية واثبتت لهُ شواهد الحال انهُ ولدهُ فضمهُ الى صدرهِ واوصاني بهِ خيراً. فلما سمعت فالنتين منهُ ذلك انكرت بادئ بدءٍ متنصلة من ذلك الزواج ولكنها لما علمت من حديثهِ انهُ مطلعٌ على السريرة التي كانت مكتومة عن كل احد وانها قرينة المركيز دي كلاميرون التزمت السكوت. ومضى لويس في حديثهِ فقال ولا يخفى ايتها السيدة ان اخي مات فقيراً لا يملك شروى نقير وان ابنكِ لفي حاجةٍ الى التربية التي تستلزم النفقات الجمة فجئت اعرض على مسامعكِ هذا الامر. فنقدتهُ فالنتين ما وجدتهُ في جيبها ووعدتهُ بالمزيد اذا جمعها بولدها فضرب لها موعداً لذلك الساعة الثانية من اليوم التالي في نزلٍ كان يقيم فيهِ مع راعول ثم ودعها وانصرف

وفي الساعة المعينة ذهبت فالنتين في عربة اجرة الى النزل المقيم فيهِ لويس وبحثت عن الغرفة حسب اشارتهِ لها ولما انتهت اليها قرعت الباب ففُتح للحال فرأت امامها شاباً لطيف الجملة يناهز العشرين فسألتهُ عن لويس فاجابها بعد ان دعاها للجلوس انهُ ذهب الآن الى حيث لا اعلم بعد ان انتظر قدوم سيدة قد تأخرت عن الموعد المضروب . فاجابتهُ انا هي السيدة التي ينتظرها . فقال هل حضرتكِ مدام فلوفيل . قالت نعم ومن انت . قال انا اسمي راعول وابي غستون دي كلاميرون واما والدتي ... فصاحت فالنتين انا هي والدتك وفتحت لهُ ذراعيها فرمى بنفسهِ على عنقها وكانت ساعةً مؤثرة

واخذ راعول يخاطبها باحاديث مختلفة تدل على نبل اصلهِ وشرف محتدهِ حتى لم يبقَ لديها ريبٌ ان دمها يسير في عروقهِ . وعند ختام الجلسة نهض راعول الى محفظتهِ فاخرج منها اوراقاً واراها لوالدتهِ قائلاً لقد اخبرني عمي لويس بانهُ قادرٌ على اذيتكِ بواسطة هذه الاوراق التي تثبت زواجكِ بأبي ولكن سآء فألهُ فها اني احرقها امام عينيكِ وللحال اوقد شمعةً وجعلها كلها طعمةً للنار فسرى عن والدتهِ بعض القلق ثم اعطتهُ صرةً من النقود وودعتهُ وانصرفت على امل ان يزورها في قصرها ثاني يوم

ومن ذلك الوقت اخذ لويس يتردد اليها وبصحبتهِ راعول فعرّفتهما بزوجها وبابنة حميها مادلين وتبودلت الزيارات بينهم وكان لويس قد شغف بحب مادلين فاخذ يتزلف اليها غير انهُ رأى منها الصد والنفور فعلم اخيراً انها مخطوبة لشابٍ اسمهُ بروسبير امين الصندوق في مصرف المسيو

فلوفيل ومن ذلك الحين اخذ يحث راعول على ابتزاز المال من والدتهِ دفعةً بعد اخرى حتى اضطرت اخيراً ان ترهن حليَّها وحليّ مادلين للقيام بمطالبهِ . كل ذلك ولويس يتظاهر باستيآئهِ من سلوك راعول ابنها وانهماكهِ في الملاهي والمقامرة وانهُ اتخذ كل الذرائع الممكنة لتقويم سيرتهِ وابعادهِ عن تلك الخطة السيئة فلم يهتدِ الى ذلك سبيلاً والحقيقة انهُ كان يقصد بذلك سلب مالها وسقوط الاسرة في وهدة الفقر حتى تضطر مادلين اخيراً الى قبولهِ طمعاً في مساعدتهِ لهم

***

بينما كان لويس جالساً ذات يومٍ عند المسيو فلوفيل اتى رسول البريد حاملاً رزمةً من الرسائل فوضعها امام فلوفيل وذهب فتناول فلوفيل الرسائل ولما فتحها وجد بينها رسالةً من اميركا موقعاً عليها باسم المركيز كلاميرون وفي ضمنها حوالة بقيمة مئة الف فرنك يطلب دفعها لامر احد التجار . فسأل لويس ما هي الصلة بينك وبين المركيز دي كلاميرون فانهُ وضع عندي مبلغاً وافراً من المال وأحال عليَّ بجانبٍ منهُ الآن . فانتبه لويس من غفلتهِ وقال لا اعلم احداً بهذا الاسم سواي فلعلهُ انتحل اسمي ليظهر بين الناس شريفاً . قال لكن مثل هذا الشخص لا يصدق عليهِ مثل ذلك فانهُ من الاغنياء في اميركا وقد ترك المعامل التي لهُ هناك وجاء من عهدٍ قريب الى اسبانيا ومن هذه الحوالة يظهر لي انهُ يقصد الاقامة فيها . قال هل لهُ عنوان يعرف بهِ محلهُ . قال ان عنوانهُ ولا شك موجود في الدليل لانهُ من الرجال المشهورين في اميركا واوربا . فتناول لويس الدليل عن

المائدة وبحث فيهِ عن العنوان ونقلهُ على ورقة وبعد قليل ودعهُ وانصرف

ولم يكن ذلك المركيز سوى اخيهِ غستون وكان لم يزل في قيد الحياة لا كما ادعى لويس امام فالنتين . وتفصيل الخبر ان لويس اخا غستون بعد هرب اخيهِ ووفاة ابيهِ باع كل ما لديهِ من الاملاك والرياش وتوجه الى باريز فلبث فيها مدة خمس سنين ينفق الاموال الطائلة بين موائد القمار ومعاقرة بنت الحان ومنادمة الحسان حتى نفدت ثروتهُ وكان قد سمع ان فالنتين ولدت من اخيهِ ولداً وارسلتهُ الى مدرسة لندن فجعل يسأل عن الولد حتى ظفر بهِ فجعلهُ آلةً لاستنزاف اموال آل فلوفيل

وبعد ان ذهب لويس من عند الصيرفيّ سافر توًّا الى اسبانيا حيث قابل اخاهُ ومكث عندهُ عدة ايام لقي فيها من البشاشة والاكرام ما يقصر عن وصفهِ القلم ثم ان اخاهُ عرض عليهِ ان يشاركهُ في ثروتهِ الطائلة ويشاطرهُ ريع امواله وكتبا بينهما صكًّا في ذلك واقاما على تلك الحال بضعة ايام . ولما رأى غستون ان لهُ اخاً يمكنهُ الاتكال عليهِ في جميع الاشغال صمم على ان يذهب الى باريز لان نفسهُ اشتاقت الى مرأى الوطن واهلهِ ولما علم منهُ اخوهُ لويس ذلك اجتهد ان يصرفهُ عن هذا العزم خوف ان يفتضح سرّهُ وتحبط مساعيهِ ولما لم ينجح دسّ لهُ السمّ فمات ضحيةً على مذابح الطمع والفساد فبكاهُ اخوهُ بكآءً مرًّا وكان يتظاهر امام الناس بشدة الحزن ثم دفنهُ بالاكرام ورجع الى بيتهِ فرحاً بهذا الفوز المبين ومن ذلك الحين صار هو صاحب تلك الثروة الواسعة ولقب نفسهُ بالمركيز دي كلاميرون

وبعد مضي شهرين من هذا الحادث كتب كتاباً الى المسيو فلوفيل

يطلب منهُ ادآء المبلغ الباقي للمركيز دي كلاميرون وقدرهُ ثلاث مئة وخمسون الف فرنك فاضطر المسيو فلوفيل الى تجهيز المبلغ قبل حلول اجل الدفع بيومٍ وسلمهُ الى امين صندوقهِ

وفي ذلك الحين حضر المركيز من اسبانيا واجتمع براعول واوعز اليهِ ان يتخذ جميع الوسائل للحصول على المبلغ المذكور لظنهِ انهُ لا بدّ ان يكون مودَعاً تلك الليلة في الصندوق فاتى راعول الى امهِ قبل المسآء وكان الدمع يترقرق في عينيهِ فذاب قلب فالنتين حنوًّا عند رؤيتهِ على تلك الحال وسألتهُ عن سبب بكآئهِ . فاجابها انهُ قادمٌ لوداعها لانهُ يقصد الانتحار . فكاد يغشى عليها لدى سماع هذه الالفاظ واخذت تسألهُ بلهفةٍ عما دعاهُ الى هذا الامر فاخبرها انهُ خسر بالمقامرة ما يزيد على ثلاث مئة الف فرنك فان امدَّتهُ بهذا المبلغ والا انتحر لا محالة . فاستعظمت والدتهُ المبلغ ولكن حياة ابنها كانت اثمن لديها من كافة ثروتهم فاخذت توبخهُ وتريهِ عاقبة تهوّرهِ واسرافهِ فكان حانياً رأسهُ ودموعهُ تتساقط على خديهِ ثم جثا على قدميها تائباً واقسم الايمان المغلظة ان هي اعطتهُ هذا المبلغ يعود عن غيهِ ويحسن مسلكهُ . فتأثرت فالنتين من اقوالهِ وصدقتها ولكن من اين تأتي بالمال وهي لا تملك درهماً . فسألها ان تعطيهُ مفتاح صندوق المال ليأخذ مطلوبهُ فابت وبعد جدال وتهديد استمرّ بينهما عدة دقائق ذهبت فاحضرت لهُ المفتاح من غرفة زوجها خلسةً ودفعتهُ اليهِ ثم سقطت مغشياً عليها . فاخذ المفتاح وهرول الى المصرف وهو في الطبقة السفلى من البيت واخذ القيمة المودعة ورجع ادراجهُ فوجد والدتهُ لم تزل مغشياً

عليها فعالجها حتى افاقت واعطاها المفتاح وقبل ان تجمع حواسها تركها وانصرف وفي صبيحة اليوم الثاني شاع امر السرقة واتهم امين الصندوق

ثم ان راعول اجتمع بالمركيز كلاميرون وطالبهُ بجزآء خدمتهِ فانكر عليهِ ذلك وحدث بينهما جدال ونفور افضى براعول الى كشف الغطآء واظهار الحقيقة لمدام فلوفيل فكتب اليها كتاباً يكلفها الحضور في الساعة الرابعة من ذلك النهار ليطلعها على امرٍ هو من الاهمية بمكان

فلما كان وقت الظهر تناول المسيو فلوفيل رسائلهُ فوجد بينها كتاباً باسم قرينتهِ ففتحهُ للحال لانهُ كان قد وُشي بها اليهِ فداخلهُ من ذلك غيرةٌ دفعتهُ الى مراقبة احوالها ولما قرأهُ اهتزت اعصابهُ غضباً اذ وضحت لهُ خيانتها ولكنهُ كظم غيظهُ وردّ الكتاب الى الصندوق . وفي الوقت المضروب رأى امرأتهُ قد خرجت واكترت عربةً وقصدت المكان المعين فاقتفى اثرها حتى اذا دخلت على راعول وابتدأ في سرد قصتهِ لم تشعر الا وزوجها واقفٌ بينهما وغدّارتهُ بيدهِ وعيناهُ يتطاير منهما الشرر وقبل ان يطلق النار اذا برجلٍ امسك بيدهِ وقال لهُ على رسلك ولا تدع الغيظ يقودك الى ما لاتحمد عقباهُ . انني من رجال الشحنة السرّية وانا مطلعٌ على كافة احوالكم واسراركم واخبرك ان هذا الشاب لم يسئ اليك ولا دنس شرفك واما قرينتك فقد اتت الى هذا المكان لتشاهد ابناً لها كان امرهُ مكتوماً عنك واذا رمت شرح الحقيقة فاجلس كي اتلوها عليك . فجلس واخذ الرجل يسرد عليهِ حياة فالنتين وما كان من امرها مع كلاميرون الى ان قال لهُ واما ولدها راعول فقد مات منذ اكثر من سنتين

فاتخذ لو يس هذا الشاب عوضاً عنهُ واتفق معهُ على مبلغ يدفعهُ اليهِ وجآء بهِ الى باريز فقدّمهُ الى امرأتك يوهمها انهُ ولدها . ثم مضى في حديثهِ فشرح لهُ امر السرقة بالتدقيق وانهُ حين وقع اختلاف بينهُ وبين المركيز دي كلاميرون على الاجرة اراد ان ينتقم منهُ بان يطلع قرينتك على حقيقة الامر وانهُ ليس ابنها بل مأجوراً من قِبَل المركيز لارتكاب هذا المنكر الذي لم يكن قصدهُ منهُ سوى اذلالكم وابتزاز ثروتكم حتى اذا جرّكم الى وهدة الخراب يعرض عليك المال بشرط ان تزوّجهُ مادلين شقيقتك لانهُ كلف بها . فعند ذلك خفض المسيو فلوفيل روعهُ ولا سيما حين اعترف الشاب المدعوّ باسم راعول بصدق كل ما فاه بهِ الشحنة ثم اخرج راعول من جيبهِ كافة الاوراق والحلى التي حصل عليها بدهآئهِ ووضعها على مائدة كانت امامهم وانتهز فرصة اشتغالهم بالبحث فيها وانسلّ هارباً . فاسترجع المسيو فلوفيل كل اوراقهِ وشكر الشحنة شكراً جزيلاً ثم عرض عليهِ ان يطلب ما يريد منهُ جزآء صنيعهِ فقال لهُ ان ملتمسي الوحيد هو ارجاع بروسبير الى مركزهِ وتزويجهُ من شقيقتك مادلين وبما ان كشف هذه المسألة امام المحاكم يمسّ شرف اسرتك فسأغضّ الطرف عنها وسوف اقتص من المركيز دي كلاميرون بطريقة لا دخل لها معكم واستأذن للحال وخرج وعاد فلوفيل بامرأتهِ الى المنزل . وفي اليوم الثاني شاع خبر القآء القبض على المركيز كقاتل اخيهِ وحكمت عليهِ المحكمة بعد ذلك بالاعدام وتزوج بروسبير بمادلين وعاشوا جميعاً بالصفآء والنعيم